



حقول البطيخ

بقلم : محمود اليدوي

وظللت الحال هكذا حتى ينس الفلاحون .

ولم يتنفسوا الصعداء الا بعد ان قامت الثورة وطرد هذا الثرى من الارض ... ووزعتها الحكومة عليهم فاعطت فدانين لكل أسرة .

وللمحفظون منهم من وقع نصيبه في الارض على الساحل .. لانه زرعها بطيخا والبطيخ يأتى للفلاح بدخل طيب .

وكانوا يبكرون في الزراعة قبل ان يرتفع مستوى الماء في موسم الفيضان فيأكل الزرع . ويجيدون تخطيط الارض ... فتبدو الحقول المزهرة في خطوط مستقيمة .. كأنها خطت بالمسطرة على لوح من الورق .

والمشاهد للمزرعة من المارين تحتها في المراكب والصنادل كان يؤخذ بجمالها ويرى انها من المزارع النموذجية .

وكانت تمتد الاسواق في منطقة الصعيد بأجود أنواع البطيخ واعذبه حلاوة .

وكانت الكلاب الكبيرة تحرسها ولكل حقول خصه وكلبه .

كانت قرية « العمارنة » مشهورة بحقول البطيخ .. وكانت تزرع أجود أنواعه واحلاها على الإطلاق . وتقع الحقول في أرض رملية على سيف النيل .

وكانت الارض ملك الحكومة وتؤجرها لاحد الانبياء بايجار قليل .. ولنفوذه وسطوته استغلها ابشع استغلال واخذ يؤجرها للفلاحين بعشرة اضعاف القدر الذي يدفعه ، وقسمها الى قطع صغيرة ليسهل عليه توزيعها على اكبر عدد منهم بايجار مرتفع .

وكان يسلط عليهم سوط العذاب فاذا تأخر أحدهم عن السداد يوما واحدا حجز على المواشى والمحاصيل .. وفي كل مطلع النهار يرون وجه الصراف ودفاتره وأوراقه .

وكان الامل يلوح في افق حياتهم بعد كل ثلاث سنوات فيسمعون ان الارض ستؤخذ منه وتعطى لغيره ... فيشعرون بقرب الخلاص .. ولكن الزمن كان يخيب آمالهم دائما فتعطى له الارض من جديد بمزاد صوري يعمل في البندر .

وراء هذه الحقول في الارض العالية
يقوم بستان كبير من شجر النخيل
والنبق والسنت . . وخلف هذا الجسر
العمومى . .

ومن الجسر تاتى العربات وتحمل
البطيخ الذى يتكوم في طرف من البستان
. . كان بمثابة السوق لهؤلاء الفلاحون
وفيه يتعاملون مع التجار . . .

وفي شهر يونيه من كل عام يبدأ
قطف الثمار الناضجة . . فترى الفلاحين
في الصباح مبشرين في الحقول . .
وايديهم تضرب على البطيخ قبل قطعه
من العريش فاذا استوى في نظرهم . .
وتحت سمعهم بعد جسسه باليد . .
قطعوه وكوموه . . وحمله الصبيان على
ظهور الحمير والجمال الى الجسر .

وكانت القرية على مبعده ثلاثة
فراسخ من المزرعة . .
وتبدو في موسم البطيخ مهجورة . .
لان الحياة كلها تتحول الى جانب
النهر . .

وكان حقل عيد الفغار ياتى بأجود
المحاصيل اطلاقا في هذه المنطقة . .
وكان عيد الفغار يزرع البطيخ
والشمام عن خبرة ويقصر زراعته عليهما
فاشتهر بهما واجاد . . وكان ودودا
وطيب القلب وامينا ويتفانى في خدمة
الناس . . فاجبه الفلاحون وعهدوا اليه
محاسبة التجار واخذ الثمن منهم
وتوزيعه عليهم كل حسب حصته .

وكان له اربعة من الابناء الاشداء
اصغرهم في العشرين من عمره وفيهم
كل صفاته فساعدوا والدهم في عمله
وجعلوا «خصه» اجمل خص في المزرعة
. . وبمثابة منتدى للفلاحين جميعا . .

فكانوا يتجمعون حوله في العصارى . .
ويتحدثون في شئونهم ومشاكلهم . .
وهم يشربون الشاي ويدخنون السجائر
أو يقتلون حبال الليف أو يعملون
المرباط والشواغل . . للجمال . .
استعدادا لعمل الشتاء .

وكانت الطبيعة تجود على المكان
باجمل المناظر الطبيعية . . فالنيل
يجرى كاللجين تحت اقدامهم والسماء
الزرقاء الصافية فوقهم . . والشمس
ترسل شعاعها الاصفر على المزارع . .
وعلى صفحة الماء . . فتحول كل شيء
الى لون العسجد . . والطيور والعصافير
. . تحلق في الجو . . وتفرد . .
والكلاب تتوئب وتتمرغ على الرمال
الناعمة .

ويبدو الجميع كأنهم في عيد . . .
وموسم البطيخ في الواقع عيد الاعياد
لهؤلاء المزارعين . . فالنقود تجرى في
أيديهم . . ويشترون المواشى والملابس
الزاهية . . والمراكيب الجديدة . .
والمذارى والفؤوس . . ويصلحون
النوارج والمحارث . . .

وعلى الرغم من أن القرية آمنة
واهلها مشغولون بمعاشهم . . ولكن
الفلاح في كل هذه المناطق يحمل السلاح
. . فالبنادقية السريعة الطلقات حلت
محل الهراوة والنبوت . . لانه يسوق
مواشيه وحده في الليل . . ويعود بها
من السوق . . ويحرس بها الاجران
والاقتان . .

وفي عصر يوم تجمع حول خص
« عيد الفغار » نفر من الفلاحين كعادتهم
واخذوا في فنون الاحاديث عن التقاوى

الجديدة .. التى زرع منها عمار فى
هذه السنة نصف فدان ... فأتت
ببطيخ كبير الحجم ولكنه قليل الحلاوة.
وعن عليان الذى شق بطيخة وتركها
فى الشمس .. ثم ذهب لبعض شأنه
.. ولما رجع وجد البطيخة باردة كأنها
مثلجة وعذبة المذاق جدا .. ولكنه
وجد ثعبانا كبيرا يحاول الاقتراب
منها .. !

فمثل هذا البطيخ تحبه الثعابين الى
درجة شديدة .

واخذ كل واحد من الموجودين يروى
رواية عن حب الثعبان للبطيخ وكيف
يلعبه بلسانه بلذة وشغف .. حتى
تعددت الروايات عن الثعابين وجاوزت
المائة ..

وفجأة ظهر شيء جديد فى الأفق
شخصت اليه الابصار ... شيء بدا
كأنه يسبح فى الجو .. ظهر جواد
أحمر كان ينطلق فى الطريق الزراعى فى
سرعة الريح .. وبدت قوائمه من فرط
سرعته كأنها لا تمس الأرض .

وكان راكبه منتصبا فوقه فى سكون
.. ومرتديا جبة كحلية ولبدة بيضاء.
ويبدو من جلسته على الحصان
فارسا من أمهر الفرسان على الخيل
ومال به عن الطريق واتجه فى السيف
الصغير المفضى الى حقول البطيخ .

وظلت العيون معلقة به حتى اقترب
وهو يهذى من سرعة الجواد ..
ولما أصبح الفارس حذاء الخص
عرفوا انه غريب .. ودار دورة بالفرس
ثم ترك اللجام وترجل .. ومشى اليهم
.. وصافحهم فردا فردا .

ثم أخذ يجلسه بجوار عبد الغفار ..
الذى رحب .. وقدم الشاي والسجائر

لضيفه .. وأخبره الفارس عن المهمة
التي جاء من أجلها .. اذ انه يرغب فى
مقابلة فلاح يدعى محفوظ له حقل فى
في هذه المزرعة لمسألة تتعلق بقطعة أرض
أخرى وراء شريط السكة الحديد .

وأرسل عبد الغفار ابنه عثمان على
جحش على التو لىأتى بـمحموظ من
البستان ... وظل الجواد فى مكانه
وجلده يلمع فى الشمس ..

وكان يحرك رأسه الجميل وينظر
الى ناحية اليمين .. ثم يعود يرد البصر
الى الحقول .
وعيون الفلاحين معلقة به أكثر من
نظرها الى الفارس الذى يركبه ..

وأزاح الفارس كوفية حريرية بيضاء
عن عاتقه ووضعها على الحرام الذى
جلس عليه متربعا .. وهو ينفض
المكان بعينه النفاذتين ..

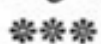
كما ترك بندقية قصيرة فى الجزء
الامامى للسرور .
وربض كلبان من كلاب الفلاحين
المتوحشة .. امام الجواد كأنهما
يحرسانه من العيون المحدقة به ..

وجلس الفارس يتحدث وعيناه على
البطيخ الناضج والمزرعة التى تبدو
كأحسن المزارع التى شاهدها فى حياته .



وبدا الجو رغم اقتراب الاصيل
وانحدار الشمس خائقا وشديدا
الحرارة .. ولكن الفلاحين اعتادوا على
مثله وعلى ما هو أشد منه وطأة ..

وكانوا يحتمون فى الظل .. أما الذين
كانوا لا يزالون فى قلب الحقول الى تلك
الساعة فكانوا يكتفون بعصب رءوسهم
اتقاء لضربة الشمس الحامية ..



وكان عرقهم وتحرك عضلاتهم مع
الغفوس يقيهم كل ما يصيب الانسان
من الجو الحار ..

وكانت الحرارة الشديدة قد جعلت
المواشى تبتعد على شط النيل او تحت
من الهجير بظل البستان .
وظلت الكلاب وهى الوحيدة التى
تلهث فى الشمس .

وشق عبد الغفار لضيفه وللجالسين
بطيختين كبيرتين ..

واخذوا ياكلون قطع البطيخ بشهية .
وقال « حماد » وهو ينظر للجواد
وكان يحب الخيل ..

— هل اشتريت هذا الجواد حديثا ؟
— لا ... انه من نتاج فرس فى
بيتى ..

— كم هو جميل .. اعربى ؟
— اجل .. وعربى اصيل .. وامه
اطلق عليها جواد الشيخ عمران ..
وهو اشهر جواد عندنا .. جواد رفض
صاحبه ان يبيعه للسباق .. رغم
مغالاتهم له فى الثمن ليفروه على البيع .
— ولماذا رفض .. فى مكانه ان
يشترى غيره .. ؟

— ولا شك انك تعرف ان الجواد
الاصيل نادر الوجود فى هذه الايام ..
فالجواد تنقرض .. كما ترى نحن فى
عصر الآلة ولم يعد هناك سامر .. ولا
دف ترقص على وقعه الخيل .. كما
كان الحال فى الريف منذ خمسين او
مائة سنة .. لا يوجد الآن الفراغ الذى
كان فى الماضى .. والحياة تدور بسرعة
ونحن نجرى فيها بأسرع مما كان ..
والجواد لطول العشرة يصبح قطعة من
جسم صاحبه ..

— وجوادك هذا الا ترغب فى بيعه ؟

— ما فكرت فى هذا قط ..
— حتى ولو أعطيت فيه ثمن سيارة ؟
— وما نفعى من السيارة .. ان هذا
الجواد صديقى ورفيق الطريق فهل
ابيع رفيقى بسيارة ..
اننى عندما امسح بيدي على كاهله
.. واره يهتز فرحا احس باننى اضع
كفى على الدنيا بأسرها ..
— اترقص به فى الموالد .. ؟

— افعل به كل شيء .. كل ما يخطر
لك على البال .. واركبه بسرج ومن
غير سرج .. وبلجام ومن غير لجام ..
وامضى به فى الليل المظلم وفى وضوح
النهار .. وفى النار الموقدة .. وفى
النسيم العاص .. واتخطى به الجداول
.. وأعبر القنوات ...

وهو يعرف بمجرد ان اضع جسمى
على ظهره ما اطلبه منه .. دون ان
احته على الاسراع او التبختر ..
فهل هذا الجواد يباع .. ؟
— ابدا .. ولو بكل ما فى الدنيا من
ذهب ...

وكان الجواد قد مد راسه نحو
الحشائش .. فنهض الفارس وأزاح
عنه السرج .. واللجام .. وتناول من
السرج البندقية .. وامسك بها فى يده
وجلس مكانه .. وقدم ابن عبد الغفار
بعض العلف للجواد .. فأرخى راسه
وأخذ ياكل ..

واستغرق الجالسون فى الحديث ..
حتى مالت الشمس للمغيب ثم تنبهوا
على صوت الجواد وهو يصهل ..
وتلفتوا فوجدوا ثعبانا ضخما يزحف
عليهم .

ووثب الفلاحون من مكانهم ..

وعادوا لحديثهم .. كان لم يحدث
شيء .

واستمروا فى سمرهم .. حتى مضى
جزء من الليل .. ولأن محفوظ كان
قد ذهب الى السوق ولم يعد حتى بعد
صلاة العشاء .. فقد استبقى
عبد الغفار ضيفه الى الصباح .. لينجز
المسألة التى جاء من أجلها .

ورضى الفارس أن يبقى وتعيشوا
وفرشوا له خارج الحص فى العراء لأن
الحرارة كانت لاتزال شديدة .

وناموا جميعا مثله فى العراء ..
وبقيت الكلاب وحدها ساهرة فى
المزرعة ..

ولاحت النجوم متألقة فى السماء ..
ولكن القمر لم يطلع بعد ..
وفى الصباح استيقظ عبد الغفار قبل
ضيفه ودار حول الحقل كعادته .

وعندما رجع الى الفارس وجده
لا يزال نائما .. ووجد على قيد ذراع منه
شيئا أفرغه وأجرى الرعشة فى بدنه ..
وجد ثعبانا ضخما ميتا .. ولما أمعن فيه
البصر عرف أن حوافر الجواد دكته بعنف
وخمن أنه أنثى الثعبان الذى قتله
الفارس فى ساعة الغروب .. خرجت
الحية الرهيبة لتنتقم .. وكان الجواد فى
مكانه يصهل .. ولم يكن عبد الغفار
يدرى الدغت هذه الأنثى الجواد قبل أن
تموت أم لا .. ولكنه كان يعترف أن
الجواد قد تغلب بقوته وذكاؤه على الشر
.. وحتى السموم سيتغلب عليها ..

وكانت نظرة الجواد الى صاحبه
النائم .. تدل على أنه فعل شيئا كبيرا
.. من أجله ... فى الظلام ... شيئا
لم يحس به انسان ...



وتناول كل منهم فاسا واحاطوا
بالثعبان ..

وتقدم عبد الغفار اليه رافعا الفأس
.. وحاول ضرب الثعبان فى راسه ..
ولكن الثعبان رواغه وخابت الضربة
واضطرب الجميع .

وزاد الامر خطورة ...

ولما شعر الفارس بخطورة الموقف
وحرجه .. تناول بندقيته سريعا
واطلق على رأس الثعبان فاصابه فى
مقتل .

وجر أحد الفلاحين الثعبان بحبل
وألغاه بعيدا عن المكان ..